تحرير مفهوم البلاغة من الذاكرة إلى تحليل الخطاب

أ.م.د. صلاح حسن حاوي
كلية الآداب/ جامعة البصرة

تقديم:

تُمثّلُ العديدُ من الدراسات البلاغية التي فرضت نفسها تصوّراً يبحثُ عن الاكتمال أو مشروعاً مقروءاً منذ بداية القرن العشرين حتى يومنا هذا شكلاً من اشكال خرق المألوف في معاينة البلاغة العربية فكراً ودرساً، في ايجاد سبل اخرى عبر صور التجديد، او التطوير، او التيسير في دائرة العمل البلاغي، وهي – بلا شك – مسبوقة بإرث بلاغيّ تقعّدت صورته التقسيمية مع السكاكي الذي صار (مفتاحه) قاعدة في تشكيل(ثقافة الشرح والتلخيص) التي انطلقت منذ القرن الثامن الهجري، ثمّ صار مشروع السكاكي حافزاً وهاجساً مقلقاً في وقتٍ واحد، فهو الحافز حين يكون نقطة الانطلاق نحو النظر الى الفكر البلاغي العربي ومنه العمل على ضبط التصانيف البلاغية في التراث، بدءاً من المصطلح ووصولا الى تفرّع القاعدة، لكنّ القرّاء اختلفوا فيه بين منتصر ومؤيد لمشروعه بوصفه مقعّداً، ومنظماً، ومحصياً فنون البلاغة وعلومها، وجماعة أخرى ترى فيه تعقيداً لا تقعيداً، أمّا أن يكون مشروع السكاكي هاجساً مقلقاً، فلا زال المفتاح نسقاً تعليمياً مهيمناً على الدرس البلاغي العربي، اذ لم تتمكن الكتابات البلاغية كلها التي جاءت بعده من ازاحته عن كرسي الدرس والتعليم، حتى أصطلح عليه احد الباحثين المعاصرين بأنه (البلاغة المستقرة) فهي تبقى بهذه الصفة حتى يشهد وضعها تغييراً يزيل عنها الاستقرار[١] على رغم من وجود جماعة مناهضة لقراءته، وكتابات أخرى خرجت من سلطته، وغيرها اختارت لنفسها طريقاً آخر كما نجده في مثلث البلاغة الفلسفي في المغرب العربي (حازم القرطاجني، والسجلماسي، وابن البناء المراكشي).

وفي بدايات القرن العشرين حضر خليل أدّه اليسوعي بلاغياً عبر مجلة المشرق داعياً الى النظر في (البلاغة العربية) بما ينسجم مع متطلبات الحياة المدنية والحضارة، فمع تغيّر البلاد تتغيّر ادوات الكلام فالأدب مرآة الحياة وصورتها[٢] وإنّ الرقي والتطور- على حد تعبير أحمد ضيف- يدعو الى سلوك طريق جديد في دراسة بلاغة العرب، لان ما يحدث في العقول يماثل ما يحدث في المجتمعات من انقلاب[٣] أمّا المفكر التنويري سلامة موسى، فقد اعلن عن ضرورة وجود بلاغة عصرية في اللغة العربية، فالبلاغة، واللغة، والفكر كلها في خدمة الحياة؛ لأننا نمارس البلاغة من أجل الوصول إلى مستوى عالٍ من الحياة، حيث تكون بلاغة الحياة أجدر من بلاغة اللغة[٤] ووجد أمين الخولي في البلاغة مادة من مواد النهوض بالواقع الاجتماعي حين تكون البلاغة واللغةُ لغةَ الحياة في ألوانها المختلفة، واداةَ التواصل المقبولة، اذ يثير الخولي اشكالية اللغة بين التفكير بها، او التعامل بألياتها، فالناس يتعلمون لغةً ويعيشون ويكتبون بلغة أخرى.[٥] وصولا الى كتابات مصطفى ناصف في بحث العلاقة المهمة بين الاستعارة والثقافة أو البلاغة والتعامل الاجتماعي، ومن ثمّ ما قدّمه مشروع بلاغة الجمهور من تشكيل وعي نظري وتطبيقي يسهم او يكون جزءاً من ما يمكن أن تقترحه هذه الدراسة بـ (علم البلاغة الاجتماعي) الذي لا يمكن تحقّق هذه الفرضية المقترحة من دون ان يمرّ بمرحلة (تحرير المفهوم) ومن ثمّ الكشف عن أدوات بلاغية أخرى قد تكون مضافة لما تعلمناها وعهدنا عليها، وصولا الى وظائف البلاغة المرتبطة بنوعية الخطابات المقروءة القرآنية والأدبية، والتخلّص من هاجس وصف الخطاب بالمركزي والنخبوي حتى نكون أمام بلاغة قادرة على اشغال موقعها في تحليل الخطاب.

المحور الأول: البلاغة بين التحرير والذاكرة

١- **تحرير البلاغة**

يبدو ان الوقوف عند مفهوم التحرير هو عتبة أولى لصلاحية فرضية التحرير نفسها، تلك الفرضية التي لا يمكن لها ان تتحقّق من دون ان نتحمّل اعباء خروجها عمّا هو مألوف ومقدّس في الدرس الاكاديمي، ونتحمّل مسؤولية الدفاع عن هذه الفرضية، عبر معاينة ومتابعة البلاغة في أحضان الذاكرة.

يفرز مصطلح (التحرير) مجموعةً من التساؤلات تُنتج عبر العلاقة بين التحرير والبلاغة؛ فهل وقعت البلاغة تحت سلطة ما؟ وهل استعمرت واحتلت وتبحث عن المحرّرِ ؟ وهل نمتلك الأدوات لتحريرها؟

في ذخيرتنا اللغوية نرى الحرُّ هو ما خالف العبودية وبريء من العيب والنقص[٦] فإذا أردنا أن نحرّر البلاغة، فإننا مطمئنون على بقائها تحت عبودية العلوم اللسانية الأخرى، وثمّة نقص يطارد تشكّلها؛ فكيف يمكن تخليصها مفهوماً حرّاً يكتسب دلالته بذاته لا بغيره؟ وكيف نرمم ما يصيبها من عوز ونقص حتى تشكّل مفهوماً قادراً على فرض مصاديقه أو مداليله.

ممّن تتحرّر البلاغة؟ وكيف يمكن لها ان تنهض بنفسها حقلا في تحليل الخطاب، يمكن له ان يشارك طروحات اخرى في هذا المسار التحليلي؟ علينا بدأً ان نعيد البحث الى منطقة المفهوم كونه يشكّل نواة المناقشة بقبول دلالة معينة او رفضها، لان معالجة المصطلح فارغة الاهمية بدون معالجة المفهوم الذي يدلُّ على التعرّف والتعقّل، ولذا فهو مرتبط بعملية الاستدعاء الذهني بوصفه " وحدة فكرية يعبّر عنها عادة بمصطلح او رمز حرفي او بأيّ رمزٍ آخر" [٧] أمّا المصطلح فهو الدلالة اللفظية للمفهوم او وسيلة التعبير عن المفهوم وبذلك يصبح المفهوم اسبق من المصطلح، كما أنّه - أي المفهوم - هو المضمون، أمّا المصطلح فهو الشكل المعبّر عنه. ولذا البحث في المفهوم وتغيير دلالاته أو تحويرها أو تحريرها يعدُّ أمراً أولياً في معرفة وظائف البلاغة وطبيعة الخطابات التي تشتغل عليها. واذا وضعنا في العنوان (ذاكرة وتحرير) فلابد من التوضيح أن الدراسة غير معنية أو مهتمة بتحرير الذاكرة، بل هي معنية بتحرير فهم الذاكرة، ولذا صار من الضروري معرفة ما الذي نريده من الذاكرة.

٢- ما الذاكــرة؟

إنّ وضع مفهوم الذاكرة في عنوان الدراسة لاشك انه يثير تساؤلات القرّاء وفضولهم في معرفة دلالة هذا المفهوم، وصلاحية استعماله في بحث بلاغي يطمح الى تحرير مفهوم البلاغة اولاً. وقد يكون من الصواب اجتماعُ الذاكرة – كما نريدها- مع التحرير، لأنّ الفهم الاجتراري للذاكرة فضلاً عن هيمنته يمثل إساءة استعمال للذاكرة ، فصار من الضروري التخلّص من هذه الاساءة. وهذا التخلّص يحتاج الى جملة من الفرضيات المقدّمة بأدلتها، ونعلن عنها في هذا البحث بوصفها تحريراً. فما المقصود بالذاكرة؟ وماذا يريد البحثُ من الذاكرة؟ أ يقصد منها الفهم البيولوجي، حين تصنّف بأنها احدى القدرات الدماغية في تخزين المعلومات واسترجاعها أم ترتبط بقوى النفس الانسانية ومراتبها؟ أ يمكن ان نعدّ هذا المفهوم معادلاً لمفهوم التأريخ أم محرّفاً عنه ليكون بديلاً عن الموروث؟

ورد مفهوم (الذاكرة) في التراث الفلسفي الاسلامي بوصفه القوة الحافظة التي تقوم بحفظ الصور التي تؤديها اليها المتخيلة بعد ان تجرّدها من المادة، وحدّد ابن سينا موقع الذاكرة من الدماغ وعلاقتها بالقوة الوهمية، فالذاكرة هي " قوة مرتبة في التجويف المؤخر من الدماغ تحفظ ما تدركه القوة الوهمية من المعاني غير المحسوسة في المحسوسات الجزئية، ونسبة القوة الحافظة الى القوة الوهمية كنسبة القوة التي تسمى خيالا الى الحس"[٨] ولا يعنينا هذا المفهوم الذي قدّمته المدونة الفلسفية. فما الذاكرة التي نبحث عنها ؟

يبدو أنّ مفهوم أرسطو للذاكرة سيهيأ الامر لمقابلة الماضي، ففي مقالته الثانية من كتاب (الحاس والمحسوس) يرى أنّ المدركات ثلاثة أقسام إمّا أن تكون حسية وهي مدركات الحاضر، وإمّا أن تكون مظنونة وهي مدركات المستقبل، وإمّا أن تكون مرتبطة بالذكر وهي المتحقّقة في الماضي، فالذكر (الذكرى) عملية استرجاع في الزمان الحاضر للمعنى الذي كان مدركاً في الماضي[٩] ثمّ يميّز بين التذكّر والذكر بوصفه حفظاً منقطعاً غير متواصل، فالأول مختصّ بالإنسان، امّا الثاني فهو لعامة الحيوان المتخيّل[١٠] أمّا الذاكرة فهي القوة المسؤولة عن عملية استرجاع الذكر واستحضاره. هذا التصنيف الارسطي أعاد بول ريكور فهمه على مبدأ هوسرل الفينومينولوجي، وصرنا امام ثلاثية ريكور (الذكرى "الموضوع" – التذكّر" الفعل"

– الذاكرة "أداة الاستعمال") ثم يخطط – لما يسميه- النجمة التي ترشد في بقية الاستكشاف وهي مقولة ارسطو (الذاكرة هي من الزمان) [١١]. فالذاكرة ليست هي الماضي فحسب، بل هي وعينا المستمر بالماضي، والذاكرة تمثلنا ونتمثّل بها، لانها هي المسؤولة عن وعينا، وسوء استعمالها سيشكّل – حتما- وعياً مزيفاً يحتاج منا التحرّر منه أو إعادة بناء علاقات جديدة بين الذاكرة والمعرفة الحاضرة. يبدأ هذا التحرّر من المفاهيم بوصفها حاضنة المصطلحات، والمبدأ التأسيسي في النظريات، وصولاً الى معاينة هذه المصطلحات بوصفها أدوات الاجراء، فضلاً عن إيقاف خصوبة الذاكرة إن ظلت تغذينا بما تفترضه من وعي مزيف عبر تفحص الاسس المعرفية لها أو التي اقترحت لتكون أسساً.

كان البحث في تخطيطه الاولي يميل الى تحديد الذاكرة بعنوان **(الذاكرة الجمالية)** لكنّ مسار العمل في البحث وخطوات القراءة في المدونة البلاغية أشّر أنّ تحديد الذاكرة بـ (الجمالية/ الادبية) ليست هي وحدها من يشكّل تلك الذاكرة (البلاغة كما تعرّفنا عليها عبر العصور) فهناك**(ذاكرة الفصاحة)** التي نراجع بها كتب البلاغة ونعلمها لتلاميذنا بوصفها جزءا من ولادة البلاغة وأساسها المعرفي، وهي ولادة مشوّهة نمارسها ونعلّمها في الدرس الاكاديمي، وكذلك **(الذاكرة المقدّسة)** التي تنتج فهماً مقدّساً للبلاغة لا يمكن تخطيه وتجاوزه حتى صار البلاغي مقدّساً، لأنه يحمل صفة البلاغة، وقدسيتها مكتسبة بفعل النصوص المقدّسة والنخبوية، وقد تكون هذه التسمية هي تسمية الجزء بعنوان الكل، فالذاكرة بمفهومها، واصطلاحاتها، وخطاباتها، وعلاقاتها مع الحقول المعرفية الاخرى كلها مقدّسة، ونخشى البحث في هذا المقدّس، لكنّنا نعتقد أنّ البحث في المقدس يبطل مفعول قدسيته، ويمثّل شكلاً من اشكال انتهاك المحرّم[١٢]، فذاكرتنا البلاغية تحتاج اعادة مراجعة في المفهوم، والمصطلحات (ادوات الاجراء)، ونوعية الخطابات، والتخلّص من تحالفات(الاعجاز، والنحو، والصرف، والنقد، والصوت) وإقامة تحالفات جديدة يفرضها واقعنا لا واقع الذاكرة، أي أنّ شكل التحالف المعرفي مرهون بالسياقات التي تنتج فيها خطابات توجّه نوعية القراءة وتقدّم فرضيات جديدة في البلاغة، فإذا بقي المفهوم محميٌ بقدسيته، فلن نجد فرصة التعرّف على تلك الخطابات المؤثرة في مجتمعنا.

المحور الثاني: كيفيات تشكّل مفهوم البلاغة

أولاً: أشكال المفهوم

إنّ الحديث عن البلاغة بوصفها مفهوماً يقترح الحديث عنها بثلاثة أشكال:

الشكل الاول (البلاغة): بوصفها صفة الخطابات، حينما يُقال (هذا خطاب أو نص بلاغي) أي انه يحمل صفة بلاغية فهو القادر على ايصال ما يريد، ومؤثر في متلقيه، ويبدو انّ الامر متعلّق في المتكلم وقدرته على أن يجعل التراكيب متمكّنة من الوفاء بتحقيق معانيها والوصول الى الهدف، ومن ثمّ فنحن نحتاج الى تحرير هذه الصفة من قدسيتها التي مُنحت لها، ونحن مشاركون في بقاء صفة المتعالي والمقدّس والافضل بأنه هو البلاغي، ولذا فقد تكتسب بعض الخطابات صفتها البلاغية من منتجها أو من عملية الانتساب لها لاسيما في الخطابات الدينية والسياسية، حتى وإن أساء استعمال البلاغة.

الشكل الثاني(فن البلاغة): البلاغة بوصفها فناً يسهم في تحقّق هذه الصفة، فلو أراد متكلم ما أن يكون خطابه وصل الى درجة البلاغة، فعليه الاستعانة بأدوات تمكّنه من هذه الصفة، وهذه الادوات هي الفنون البلاغية، وتحدّث عنها بوصفها أدوات أو وسائل لأنها هي التي تمنح الخطابات والكلام صفته البلاغية، وقد تفقد قدرتها الآلية في منح هذه الصفة بعلة غياب قدرة التوظيف السليم المتناسب مع السياقات والمناسبات. فهذه الادوات أو الفنون هي دوال تسعى لتحقيق مداليل يريدها المتكلم قد لا تكون هي المداليل المفروغ من ارتباطها بتلك الدوال سواء كانت (لفظية او اشارية أو مرئية).

الشكل الثالث (علم البلاغة): يحتاج مستعمل الفنون البلاغية ومتقبلها الى علم يشخّص تلك الفنون ويحدّد دلالاتها، ويكشف قيمتها، وطريقة استعمالها، فيكون علم البلاغة هو العلم المتخصص في دراسة هذه الفنون أو الدوال، فتكون العلاقة بين الثاني

والثالث هي علاقة دارس(علم البلاغة) بمدروس (فن البلاغة)، فضلا عن أنّ المتخصص والمعتني بعلم البلاغة هو القادر على تزويد المتكلم بعدّته البلاغية، حينما تنتج بيداغوجية البلاغية، ويفتح البلاغي ذراعيه لتعليم رجال السياسة، والدين، واصحاب الغايات مع المجتمع، بغض النظر عن سلامة هذه الغايات من رداءتها، وهذه هي وظيفة البلاغة التي توقّف عندها افلاطون مع السفسطائيين في محاوراته. وقد يرى البعض ان هذا التصنيف امرٌ مفروغ منه ولا نحتاج له، لكنّ البحث على يقين مطلق بوجود اشتباك دلالي عند القارئ في تحديد المهام والصفة الممنوحة لكل منهم، بل عند المتخصصين يتحقّق هذا الاشتباك، فلا يُفرز على سبيل المثال بين فن البيان علم البيان الذي يكون مختصّاً بدراسة الفنون البيانية (التشبيه ، والمجاز، والاستعارة، والكناية) او هو – على حد تعبير السكاكي "معرفة ايراد المعنى الواحد في طرق مختلفة"[١٣] وهذه الطرق التي تنتج المعنى هي الفنون البيانية، وبذلك يكون فن البيان الاسم الجامع لهذه الفنون. وثمّة حيرة أخرى في متابعة مفهوم البلاغة معجمياً، فهي (الوصول إلى الشيء) حيثُ تقول: بلغتُ المكان إذا وصلتَ إليه، وهذا المعنى ليس بريئاً في دلالته وتشكّله ذهنياً، وإذا رسخ وصار مصطلحاً سيحمل معه عدم البراءة في التشكّل، وهذا ما حدث فعلا حيثُ أنتج لنا مداليل مهمة لمعنى البلاغة منها:

١- **قول ابن المقفع عن البلاغة** بأنها: "كشف ما غمض من الحق وتصوير الحق في صورة الباطل"[١٤] ويحلّلُ صاحب الصناعتين هذا الوصف فيرى ان الامر الصحيح المكشوف والثابت لا يحتاج الى موضِّح بل هو واضح بنفسه، إنّما الشأن في تصحيح ما ليس صحيحاً. فالبلاغة ممارسة تغيير الصورة وتغييب ما يمكن كشفه.

٢- **قول سهل بن هارون:** "سياسة البلاغة اشد من البلاغة" [١٥] وهذا النص قائم على التفضيل بين مفهومين احدهما مفهوم إضافي (سياسة البلاغة) وثانيهما مفهوم مفرد (البلاغة) ويبدو ان المفهوم الثاني ايسر في الفهم من الأول، لأننا نحتاج الى معرفة ما يريده سهل بن هارون من مفهوم السياسة؛ وهو مصدر للفعل (ساس) فسياسة البلاغة تعتمد تدبير فهم البلاغة والاعتناء بتوظيفها، ولاشك ان مسؤولية هذا التدبير هي اهم من مسؤولية (فهم البلاغة).

٣- **قول خالد بن صفوان الذي ينقله ابن رشيق القيرواني في (عمدته):** إنّ البلاغة هي (القصد الى الحجة) وهذا التعريف يحتاج تأمّلاً في مفهوم القصد الذي يدلّ على اتيان الشيء ولا يتمّ هذا الاتيان الا عبر بوابة الوعي، ثم المكوّن الثاني للتعريف هو (المقصود/ الحجة) وهذا من التعاريف التي نشأت من أحد خطباء العرب يمتاز بقدرته الحجاجية، فهو يدرك الصفة الحجاجية في البلاغة، وقد نقول : هذا وعي مبكر بالجانب الحجاجي في البلاغة العربية، وقد يكون هو ذاته المعنى الذي كان العرب يعرفه عن البلاغة قبل ان تعيش تحت ظلّ العلوم اللسانية الاخرى كما أرادت لها الثقافة العربية ان تكون، وصمتَ الدرسُ الاكاديميُّ مقتنعاً بذلك.

٤- **قول السكاكي**: فقد ربط البلاغة بالمتكلّم وقلّده وسام السلطة، فلا وجود لبلاغة الكلام كما هو متعارف عند البلاغيين فيما بعد، ولا وجود لبلاغة المخاطَب كما يعلن ذلك التراث العربي، فقال السكاكي عن البلاغة بانها " بلوغ المتكلّم في تأدية المعنى حدّاً له اختصاص بتوفية التراكيب حقّها، وايراد انواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها"[١٦] وهذا تعريف آخر يجدد ولاءه للبلاغة بوصفها صفة لا علماً ولا فناً، لكنّ هذه الصفة لا تتحقّق الا عبر هذه الفنون / الادوات، فبلاغة المتكلّم التي أسّس لها السكاكي بوصفها صفة، سيجعل منها الخطيب القزويني ملكةً تمكّن المتكلّم من تأليف الكلام البليغ[١٧]، مفرّقاً بينها وبين بلاغة الكلام التي لم نجد لها حضوراً عند السكاكي كما يعتقد احد الباحثين أنها تكمن في تعريف السكاكي[١٨].

٢- **البلاغة بين المطابقة والاختلاف**

قد تُثار نقطة أخرى في الاشتباك الدلالي لمفهوم البلاغة وجود هذا المفهوم بين مدلولين متناقضين او بين ثنائية تشكّل هاجسا مهما في الفكر الانساني هي (المطابقة والاختلاف) ففكرة المطابقة هي نتاج لتعريف بلاغة الكلام بشكل خاص لا

البلاغة بشكل عام، أي أنّه تعريف مختصٌّ بالكلام دون الاطراف الاخرى (المتكلم – المتلقي) التي يمكن ان تحقّق البلاغة بتمامها. لكنّ اوجه المطابقة عند السكاكي توزّعت على صورتين:

الاولى: التطابق بين الكلام ومقتضى الحال، وهذا ما ورد في حديثه عن علم المعاني بأنّه" تتبع خواص تراكيب الكلام في الافادة وما يتّصل بها من الاستحسان وغيره، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال"[١٩]. حديث السكاكي في هذا التعريف حديثٌ توصيفي لدور علم المعاني ووظيفته في (التتبّع)، لكنّه يقطع الوظيفة التوصيفية ليبدأ الدور الارشادي / التعليمي، لماذا نتتبع؟ الغاية هي الاحتراز من الخطأ وتحقيق مبدأ المطابقة بين التراكيب ومقتضيات الحال.

الثانية: التطابق بين الكلام والمعنى المراد، في حديثه عن علم البيان بأنّه " معرفة ايراد المعنى الواحد في طرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه وبالنقصان، ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه"[٢٠]. أيضاً بدأ التعريف بالمعرفة الاستكشافية لطرق انتاج المعنى، ثمّ بيان الغاية وهي التطابق بين الكلام وتمام المعنى المستهدف.

أمّا القزويني فقد اكتفى بالصورة الاولى مع شرط الفصاحة، اذ يقول: " أمّا بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته"[٢١] وهو ما يقرّ به من جاء بعده. فالمطابقة هي التساوي أو التغطية أو الموافقة[٢٢] ولعلّ هذا المفهوم اكثر التصاقا بمفهوم البلاغة المعجمي وهو الوصول الى الهدف عبر التطابق مع المقام، فضلاً عن أنّ مفردة التطابق اشارة الى الانسجام المطلق بين الدال والمدلول، أي (الموافقة) وهذا خلاف ما تقدّمه البلاغة من تنازع المداليل مع المفردات، أو ترك اللفظ لمعناه الاول وانتاج معنى جديد مثلما نجده في الاستعارة، أو ان يحلّ لفظ جديد محلّ لفظ سابق لأداء المعنى الواحد كما هو في المجاز المرسل، فالبلاغة هي مغادرة التطابق والبحث عن (الاختلاف) بوصفه قيمة البلاغة التي تحققها الفنون وتعلن عن الوظيفة الجمالية، بل انّ الاختلاف، وخلق الانزياحات هو الذي يمنح النصوص صفتها البلاغية، لان البلاغة هي لحظة التمرد على المتعارف والسائد، ولا يثير المتلقي الا الاختلافُ، وقد ذكر البلاغيون ان جمال التشبيهات عبر المتباعدات، ولا يتحقق التباعد الا بالمختلف والمتباين؛ اذ يقول عبد القاهر الجرجاني: "اذا استقريت التشبيهات وجدتَ التباعد بين الشيئين كلّما كان اشد، كانت الى النفوس اعجب، وكانت النفوس لها اطرب، وكان مكانها الى ان تحدث الاريحية اقرب"[٢٣]. فهل يمكن ان نحقق المطابقة عبر الاختلاف؟ يبدو أنّنا بحاجة لمراجعة فهمنا للبلاغة وتحريرها من بعض القيود التي وضعت عليها، وصرنا نتقبلها كما هي من دون مراجعة ومناقشة، فضلا عن مراجعتنا الى الكيفية التي تشكّلت بها هذه الذاكرة الجمالية، حتى فقدت البلاغة وظائفها الاتصالية والاقناعية لصالح الوظيفة الجمالية التي اعتقدنا بهيمنتها في النصوص الشعرية والنثرية، وكذلك الوظيفة الاعجازية في النص القرآني.

فقد أكّدت المدونة التراثية التي احتفظت بها ذاكرة العرب أن البلاغة هي منطقة الانتقال من الممكن الى الفعل، ومن الفشل الى النجاح، ومن النقص الى الاكتمال؛ فهي (لمحة دالة) كما يقول خلف الاحمر او هي (إجاعة اللفظ واشباع المعنى) لكنّ ما لا يلتف اليه ونسكت عنه هو ان البلاغة مصدر للعطاء او سبب للحرمان؛ وذلك عبر ممارستها او توظيفها؛ فهي اداة ملتوية في وصف الذات يستعين بها الحاكم في تجميل مقدماته وترسيخ سلطويته والوصول الى اهدافه في تجسيد حالة الحرمان عند المحكوم او الخطاب المضاد، كما تمثّل البلاغةُ كلَّ ما يحتاجه المرء في تحقيق مبتغاه، وهذا ما تكشف عنه مدونة التراث وكأنها تعبّر عن حقيقة مفهوم (البلاغة) وكيفية تشكّله، وتعدّد دلالاته، فالبلاغة هي القدرة والوصول، والانتاج، والخطابة والتبليغ، والافهام، والاقناع، والامتاع؛ وبها تُمارس عمليات المكر والتحايل، والتسلط، والجذب، والخبث الجمالي؛ مثلما تمكّن او يتمكن بها المتلقي/ الجمهور من تفكيك خطاب السلطة وانتاج الخطاب المضاد القادر على المقاومة؛ فمن خلال البلاغة يتحقق ما لا يمكن تحقيقه؛ ولأننا تركنا مفردة (بلاغة) متحيّرة في اختيار موقعها صرنا نفهمها بانها (الشعرية، والجمالية) فحصلنا على حضورها في الخطاب النقدي المعاصر وصرنا امام عناوين تصدرتها مفردة (بلاغة) منها على سبيل المثال

(بلاغة السرد، وبلاغة الصورة، وبلاغة الوفرة والندرة، وبلاغة التزوير، بلاغة الكذب) وغيرها من التوصيفات التي قد لا يحدد اصحابها مدلول المفردة الاولى في العنوان، معتمدين الذاكرة الجمالية والادبية التي نعتاش عليها، والبحث غير مهتم بالإعلاء من شأن بلاغة الحجاج وقضايا الجدل على حساب الطرف الاخر الجمالي أو الادبي، بل أن مركز الاهتمام هو تغيير وظيفة البلاغة وتوسيع دائرة اهتمامها، واعادة النظر في أدواتها، فلاشك أنّ حاجات المجتمع – اليوم – تفرض علينا النظر في المفهوم وتحريره ممّا هو مفروض مسبقاً، وفهم دلالات جديدة، وتفسير وجود بعض الادوات والوسائل التي تحقّق غاية البلاغة.

٢- علمية البلاغة

هل أسّس البلاغيون العرب في تراثنا البلاغي لـ(علم البلاغة)؟ وهل أشارت مؤلفات هذا التراث لهذا العلم بالاصطلاح أم بالقاعدة ام بشرح المثال والشاهد؟ وهل يمثّل عدم التأسيس سبباً في فقداننا تخطي عملية الخلط بين اشكال البلاغة (الصفة- الفن – العلم)؟

علمية البلاغة عنوان وموقع تدريسي تقعيدي لا ينتمي الى منطقة الجمال ومساحات التحرر، بل يفرض الكثير من القيود على المبدعين، ويعتمد قسر القاعدة المفترضة على النصوص الابداعية، وظل هذا المفهوم يحاصرنا في الدرس الاكاديمي الحديث والمعاصر حتى وإن حاولنا اجراء بعض التعديلات التي قدّمتها الدراسات اللسانية والبنيوية المعاصرة، كما فعل محمد عبد المطلب والازهر الزناد، وجميل عبد المجيد وغيرهم في التعامل مع علم البلاغة تعاملا حداثياً مستفيدين من الاطروحة اللسانية والبنيوية الحديثة. ولن يتخلّص مفهوم البلاغة من الاشتباك الدلالي وفض الاشتراك مع النحو، والنقد، ودراسات اعجاز القران، والمباحث الصرفية والصوتية الا بتقنينها منهجاً لتحليل الخطاب، وقبل ذلك كله ضرورة تحرير المفهوم من القدسية التي اكتسبها عبر التصاقه بالنصوص المركزية والنخبوية، فأصبحنا لا نملك القدرة على فهم البلاغة الا تلك الخصائص الموجودة في النص القرآني والشعر العربي، ولا يمكننا زعزعة هذا الفهم، أو قبول فرضية التصحيح حتى وإن عثرنا على نصوص تتمتع بقدرة بلاغية عالية، لا شك أنّنا سنرفض هذه البلاغة، لأنها لا تخضع لمعايير البلاغة المقدّسة، ونغمض العين عن وجود بلاغة ينتجها الجمهور غير النخبوي، او بلاغة المرئي غير المكتوب القرآني أو الشعري، أو بلاغة الافتراضي والرقمي، او البلاغة النقدية القادرة على نقل الاهتمام من انشاء الخطاب الى نقده، فوجود هذه الاتجاهات البلاغية المعاصرة التي يتبناها البحث تجعل للبلاغة موقعاً مهماً في درس تحليل الخطاب، فضلاً عن ربط البلاغة بالواقع والمجتمع ومحاولة تأسيس ما يمكن ان نقترحه (علم البلاغة الاجتماعي) أو ما يسميه مصطفى ناصف (البلاغة الاجتماعية).

المحور الثالث: ذاكرة البلاغة المقدّسة

إنّ تقديم مفهوم البلاغة المقدّسة لا يفرض وجود بلاغة مدنّسة، لان عدم وجود الشيء لا ينفي وجود غيره، لكنّ اقتراح (البلاغة المقدّسة) يمثّل مفتاحاً للتحرير ومن ثم انشاء علاقات جديدة للبلاغة مع مناطق معرفية أخرى تسهم في الانتقال بالبلاغة الى أن تكون مدخلاً في تحليل الخطاب، فكيف تتحقّق هذه البلاغة المقدّسة؟ وجودها مرتبط بالفهم المقدّس للنصوص المستشهد بها دون غيرها، أي أنّ مؤسساتنا الاكاديمية والدينية ترفض أن تكون هناك خطابات بديلة غير التي تعوّدنا عليها وليس من حقّنا ان نستعين بخطابات ليست مركزية ولا نخبوية، فضلاً عن صورة منتجي الخطابات والنصوص التي تمتلك صفة البلاغة ومتغذّية بفنون البلاغة، فهناك تخطيط مسبق لصورتهم وشكلهم وتفاصيلهم وليس من حقنا أن ننقل مركز البلاغة منهم الى من هم أقلّ درجة منهم، فنصوص البلاغة متمثلة بمنتجين محددين هم القران الكريم ، والشاعر العربي القديم، أمرؤ القيس مقدّس ببلاغته، وبلاغته مقدّسة به، وهذه المعادلة البلاغية تنطبق على غيره من الشعراء، فأبو نواس، والمتنبي، والسياب، والجواهري وغيرهم محميون بقداسة النص الادبي العربي، وقداسة هذا النص- بلاغياً – متأتية من قداسة النص

القرآني، أي أن هناك قداسة متبادلة، فالنص القراني – بلا شك مقدّس من حيث ارتباطه بمبدعه الكمال المطلق، ولذا فرضت بلاغتُه القدسيةَ على مفهوم البلاغة، وعلى نصوص الشعر العربي وهذا ما أسس له ابن المعتز، وعمل على تشريعه في كتابه (البديع) حيث جعل النص القرآني حجة بلاغية على حجة نصوص مدرسة البديع بلاغياً، أمّا والشعر العربي قدسيته متأتية من كونه حجة عند العربي فهو سجله وديوانه الذي يحمي هويته، فكان عمل ابي عبيدة معمر بن المثنى في (مجاز القران) يدور على هذا النحو.

١- المفهوم القرآني للبلاغة وإنتاج الفهم المقدّس

لو سألتَ الباحثين المختصّين أو المهتمين بالفكر البلاغي العربي بوصفه المنطقة الحاضنة والمنتجة والموجّهة لعلم البلاغة عن أول كتاب أُلّف في البلاغة العربية، فقد تكون الاجابات متعدّدة متفقة او متباينة، كما انّ هذا السؤال ليس سؤالاً في معرفة العرب بالبلاغة بوصفها صفة موجودة في كلامهم شعراً ونثراً، مختلطةً بالوعي النقدي للظاهرة الادبية[٢٤]، بل الحديث عن البلاغة بوصفها انظمة كتابية وعلم له اصول وقواعد يتعلّمها الناس ويتعلّمها الباحث البلاغي في تحليل النصوص والخطابات، وللاطلاع على هذه الاجابات سأعرض بعض هذه الآراء وبشكل مختصر، لغرض الرجوع الى الهدف الاساس من هذا المحور وهو المفهوم القرآني للبلاغة، وما يرتبط به فيما بعد من فهم مقدّس لها.

- (مجاز القران لابي عبيدة معمّر بن المثنى ٢٠٨ه) وهو ما اتفقت معظم كتب تأريخ البلاغة، أو الفصول والمباحث التي تناقش تأريخ البلاغة وتأسيسها على ان يكون اول كتاب في البلاغة العربية وأقدم من تحدّث في البيان العربي[٢٥].

(البيان والتبيين للجاحظ ٢٥٥ه) اذ يسميه شوقي ضيف إمام علم البلاغة، ومؤسس البلاغة العربية بلا منازع[٢٦]، ومنشأها[٢٧].

- (البديع لعبد الله بن المعتز ٢٩٥ ه) يرى بعض الدارسين أن هذا الكتاب هو أول كتاب جعل من البلاغة غاية تأليفه[٢٨]، ويجمع بين فنونها.[٢٩]

مهمتنا في هذا المحور النظر في الفهم المقدس للبلاغة، ما مصدره ؟ ولماذا لازلنا نعيش هذا الفهم ؟ وهل تعد محاولة الخروج منه عيباً ونقصاً في الدراسات القرآنية البلاغية؟ وهل يمكّننا الخروج من هذا الفهم والوصول الى مرحلة جديدة في فهم وظائف مختلفة للبلاغة تتناسب مع طبيعة العصر وخطاباته؟ يبدو أنّ مفهوم البلاغة القرآنية وما يرتبط به من مبحث (اعجاز القران) استحوذ على مفهوم البلاغة بشكل عام ومنحها صفة القداسة حتى صرنا لا نعرف الا (البلاغة المقدّسة) وبذلك تجاهلنا الكثير من وظائف البلاغة وصفاتها، فلو راجعنا بعض اراء المحدثين الذي تابعوا تاريخ البلاغة سنجد هذه الآراء تصرُّ على أن مسألة (اعجاز القران) لها الصدار والفضل على البلاغة العربية، ولسنا في سبيل مناقشة السبق من عدمه، كما نريد ازالة توهم البعض أننا نكر مسألة اعجاز القران وأثرها في توسيع الدرس البلاغي، بل أنّنا نريد تخليص البلاغة من الفهم المقدّس لها عبر التكبيل الاعجازي الذي مورس عليها، حتى أصبحت قضية الاعجاز هي البلاغة، ويرى أحد الباحثين أنّ الخلافات والآراء في اعجاز القران هي التي ولّدت علوم البلاغة[٣٠]، وهي التي انتجت – بلا شك – العلاقة السيئة في تصوّر القارئ بين البلاغة والايديولوجيا، والحميمية في تصوّر البلاغي الاعجازي، كما يعطي هذا الامر تصوّراً سلبياً يجرّ البلاغة الى منطقة محمية بالدراسات القرآنية، وضرورة البحث عن امكانية الفصل بين البلاغة بوصفها خطابا بلاغياً معنياً بالخطابات البشرية مثلما هو معني بالخطاب القرآني لا الخطاب الاعجازي، والبلاغة بوصفها منشغلة بما جعلها منطقة للصراع الايديولوجي المبني على مناقشة قضية الاعجاز، ومعلوم أنّ هذه القضية مكانها ضمن مفردات الدراسات القرآنية وعلوم القرآن ولا مكان لها في درس البلاغة العربية، ومتى ما تحقّقت ازاحتها من البلاغة، تحقّق وجود درس بلاغي يبحث عن وظيفة البلاغة واهدافها ومن بينها البلاغة القرآنية التي موضوعها القرآن والبحث في وظائفه البلاغية، كما أنّ المعرفة بعلم البلاغة هو الذي يرشدنا الى فهم قضية اعجاز ومناقشتها وليس العكس، فإغفال علم البلاغة، والاخلال بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما

خصّ الله به من حسن التأليف[٣١]، لكنّ معادلة فهم التأسيس البلاغي العربي كما يحدّثنا عنها مؤرخو البلاغة، تقول: إنّ الدراسات القرآنية أثّرت في نمو الدراسات البلاغية وتنوعها[٣٢] وهذا رأي لا يتفرّد به بدوي طبانة، بل ظلّ رأياً متسيّداً في البحث البلاغي ودرسه الاكاديمي، حتى وجدنا اجتهادات المفسرين أصبحت قاعدة بلاغية، والمفسّر واجتهاداته هي التي تقود زمام البلاغة لا البلاغة هي التي تقود المفسّر.

٢- المفهوم الشعري للبلاغة

ليس من الممكن أن ننكر الدور المهم الذي مارسه الشعر العربي في تنظيم المفاهيم البلاغية، إذْ كان هو الشاهد والمثال المتحكّم في فهم المصطلح البلاغي، ويحتلُّ موقعاً رائداً في امتداد مساحة الدراسات البلاغية ونشأتها، لكنّ ما يمكن الوقوف عنده معادلة الشعر والنقد من جهة والبلاغة من جهة أخرى، فمن منهم كان ضحية الاخر؟ فالنقد العربي القديم حكاية كتبها النقاد وأداروا حوارها مع الشعراء، وموضوعها (الشعر وما يرتبط به) إذ لم ينل النثر عنايته مثلما اعتنى النقد القديم بالشعر، ولسنا – هنا- في بيان المفاضلة ومن حصل على الاهتمام، لكنّنا نريد معرفة موضوعة النقد ومساحة اشتغاله، فما خصائص خطاب النقد؟ وكيف يمكن لنا ان نعلم انه نقد وليس بلاغة؟ نقدم هذه الاسئلة ونحن على يقين أن هناك اشتباكاً وظيفياً بين النقد والبلاغة، ولا يمكن ان نحمّل الذاكرة هذا الاشتباك، بل نحمّله لقرّاء هذه الذاكرة.

نحن نريد خطاباً بلاغياً♦ قد يعالج مسألة نقدية، لكنّ الاولوية لمعالجة القضايا البلاغية، ولا يمكننا أن نضع خطاباً نقدياً همّه النقد وفيه مناطق واضاءات بلاغية، ونضعه في خانة الخطابات البلاغية، فقد تعوّدنا أن نقرأ ونتعلّم أن موازنة الامدي، ونقد الشعر لقدامة، وبديع ابن المعتز بأنها خطابات نقدية مرة، وآخرون يعلمونها لطلبتهم، ويكتبون عنها بوصفها بلاغة، كما قرأنا واستمعنا للكثير من الباحثين ممن يجعل (دلائل الاعجاز) كتاباً في اعجاز القران، وهذا أمر غريب في كتاب لم تكن مسألة إعجاز القران همّه المعرفي، مثلما كانت (الرسالة الشافية) للمؤلف نفسه رسالة في الاعجاز من دون أدنى شك، وكذلك مع (العمدة) لابن رشيق الذي قدّم مادة بلاغية وأخرى نقدية، مثله مثل حازم القرطاجني الذي يحمل هويتين (بلاغية ونقدية)، فكيف يمكننا أن نجد خطاباً بلاغياً يعالج موضوعات البلاغة وينشغل بها؟ وكيف يمكننا أن نتخلّص من المزاحمة النقدية لصالح البلاغي؟ علينا أن نراجع هذه الذاكرة والكيفية التي صنّف على أساسها الدارسون وضع كل منجز في حقل معرفي معيّن، وإنّ قبولنا بوجود اتجاه نقدي هو النقد البلاغي لا يعني الاستسلام بعدم الفرز بين خطابين مختلفين في الموضوع والكيفية هما (خطاب النقد وخطاب البلاغة)، فقد نعالج الموضوعات النقدية معالجة بلاغية وهذا فعل نقدي لا يمكن رفضه، كما أنه يمثّل جزءاً من تحالفات معرفية سابقة بين النقد والبلاغة، لكنّ خطاب النقد – كما يبدو - هو المسؤول عن منح البلاغة مفهومها الشعري، بفعل هذا الاندماج بين الخطابين النقدي والبلاغي، وانتقال موضوعة الخطاب الاول لتكون صفة للخطاب الثاني[٣٣]، وهذا ما جعل أحد الباحثين يرى أن البلاغة تنشطر الى علم وأدب، فالأول يبني القواعد والثاني أقدم وأعرق يحتضن الظاهرة البلاغية الواسعة التي تحتاج الى ضبط[٣٤]، فهو يجعل من البلاغة مفهوماً متعالياً ينتمي للبلاغة النخبوية التي تعوّدنا ان لا نتجاوز خطوطها، لان خطاب النقد موضوعته الشعر، لكنّ خطاب البلاغة هو خطاب فاحص لأي نص يملك أدوات التمكّن التي يمارسها المتكلم في ايصاله أهدافه.

المحور الرابع: ذاكرة الفصاحة

عبارة ابن سنان الخفاجي (٤٦٦ه) عن الفرق بين البلاغة والفصاحة[٣٥] نقطة مفصلية في تراثنا تكشف عن تغلغل الفصاحة وتسربها الى ذاكرتنا البلاغية، والاعلان عن أجنبيتها وعدم الحاجة اليها، فلاشك أنّ البلاغة هي التمكّن الاسلوبي الذي يسهم في ايصال المعاني والتأثير في السامع، أو هي كما ورد في تعريفها المشهور مطابقة الكلام لمقتضى الحال أي أنها أسلوب (تركيب وانتقاء للألفاظ) مع (المعاني/ الافكار) التي يريد المتكلم ايصالها الى متلقيه، مع العناية بالسياقات التي تنتج فيها العبارات. فأين هذه المكونات من الفصاحة وهي مقصورة – على حد تعبير ابن سنان – على وصف الالفاظ ؟ كما أنّ هذا

التعريف للفصاحة يجعلها علماً يجهز المتكلم مقدرة انتقاء الالفاظ بعد مرورها بعملية التوصيف، لكنّ البلاغة وصف للألفاظ مع المعاني[٣٦]، فالقارئ لمبحث الفصاحة عند الجاحظ سيجده مبحثاً يمثل قلق الشخصية العربية في بناء الخطابة، ومحاولة الخروج من دائرة العيب والعي الى دائرة التمكّن اللفظي، كما أنه مبحث مربك للقارئ، لأنه يشكّل ذاكرة غير منتظمة، او ذاكرة تطارد البيان أين ما ذهب. ولعل خطوات ابن سنان الخفاجي هي الاكثر وعياً بمفهوم الفصاحة، قدّمها لنا مبحثاً صوتياً وأعلن عدم انتمائها للبلاغة، وكتب الخفاجي أكثر من مئة صفحة من (سر الفصاحة) وهو يدور في المبحث الصوتي لا البلاغي وهو المبحث الذي فرض نفسه مبحثاً خلافياً بالمعنى الايديولوجي على عبد القاهر الجرجاني في (دلائل الاعجاز)، وحضر بصورة خجولة في (مفتاح العلوم) فقد خصص السكاكي القسمَ الثالثَ من المفتاح للبلاغة، ولم يكن للفصاحة حظٌّ منها.

ثم أعادنا الخطيب القزويني (٧٣٩هـ) الى نقطة البدء مع (ابن سنان الخفاجي) فصار شارحاً لـ(سر الفصاحة) وليس شارحاً لـ(مفتاح العلوم)، ومثله السبكي (٧٧٣ه) في عروس الافراح، لكنّ التفتازاني (٧٩٢هـ) أعلن أنّ علم البلاغة يقتصر على علمي البيان والمعاني[٣٧] ونحن نسأل اذا كتان علم البلاغة يقتصر على هذين العلمين احدهما يدرس دلالة التراكيب والثاني يدرس المعاني الاضافية والايحائية، فما الحاجة الى مبحث الفصاحة؟ وهل كانت الفصاحة ذاكرةً تعيق وترهق ذاكرتنا البلاغية؟ برّر بعض البلاغيين حضور الفصاحة مقدّمة في كتب البلاغة ومدافعين عن تواجد هذا المبحث الغريب غير المعتنى به في علم البلاغة، بأنّ الفصاحة شرط للبلاغة، ثم راحوا يفتشون عن علاقة الكل بالجزء ، أحدهما كل وآخر جزء، وتابعهم الدرس البلاغي الاكاديمي فيما بعد، ولعل القارئ لا يجانب الصواب لو فكر بالفائدة العلمية البلاغية التي حصلنا عليها من مبحث الفصاحة، اذ يبدو أنّنا لم نجني الفائدة بل شغلنا أنفسنا وتلاميذنا بمفهوم زاحم البلاغة وأخذ نصيباً من ذاكرتنا.

فنحن أمام ذاكرة الفصاحة وقرّاء هذه الذاكرة، فالذاكرة غنية وقدّمت تفاصيل كثيرة، لكنّ القراءة لها صارت قراءة شارحة وليست قراءة منتجة رابطة وكاشفة عن تفاصيل اقامة علاقة بينها وبين البلاغة، فإمّا التخلّص من هذه الذاكرة التي قدّمت الكثير للدرس الصوتي أكثر ممّا قدّمت للدرس البلاغي، بل أثقلته بما لم يخدم المهتمين بالبلاغة على مستوى البحث أو مستوى التدريس، وإمّا إعادة النظر بها على وفق معطيات السياق الثقافي والاجتماعي الذي نعيشه.

المحور الرابع: تحالفات معرفية مقترحة

الحوار مع الذاكرة الجمالية، والذاكرة المقدّسة، وذاكرة الفصاحة، وتقديم فرضية فك الارتباط بين البلاغة بوصفها علماً مع النقد الادبي، واعجاز القران، والنحو، والفصاحة؛ هو مرحلة الانفصال عن تحالفات معرفية سابقة يرى البحث أنها لم تقدّم للبلاغة بالقدر الذي قدّمت لمجالها المعرفي، فقد حظت هذه المجالات المعرفية بحضور معلن عبر تحالفها مع البلاغة، فنحن نقرأ النقد الادبي القديم في مرتبة من البلاغة، وهو يمثّل مساحة الاقتراب من النصوص وبيان مواطنها الجمالية والثقافية، وصار الموضوع النقدي هو الذي يمثّل البلاغة، أمّا الموضوعات البلاغية فليس الا أدوات كاشفة تنتهي صلاحيتها بعد اداء دورها، لكنّ الصدارة المتبقية للموضوع النقدي ومجاله المعرفي النقد الادبي، أمّا مع (اعجاز القران) فالأمر لم يختلف كثيراً حين صارت مسألة الاعجاز تُدرج ضمن منظومة الدرس البلاغي، وصرنا منشغلين بهذه المسألة أكثر من انشغالنا بالبلاغة نفسها المنظومة المنتمية لها، وأقصى ما يمكن التفكير به هو الربط بين الايديولوجي والبلاغي، لان مسألة الاعجاز هي مسألة ايديولوجية بامتياز، ولا نستبعد كتاب (مجاز القران) الذي لم يعلن صراحةً عن اهتمامه بهذه المسألة، بل ربط بين الكلام القرآني والكلام البشري وكأنّ الاخير مقياساً للتفاوض على شرعية وضع قوانين لتفسيره، اذ يقول: "في القران مثل ما في الكلام العربي من وجوه الاعراب، ومن الغريب، والمعاني"[٣٨] وبحثنا يتّفق مع الدكتور الجابري أنّ كتاب (مجاز القران) محاولة أولى في وضع قوانين لتفسير الخطاب البياني[٣٩]، فإذا كانت قضية الاعجاز هي التي شغلت البلاغيين والمتكلمين من القرن الثالث الى القرن الخامس، وقد يزيد عن ذلك، ولم تحسم لصالح جبهة كلامية وعقدية دون الاخرى، فما الذي يدعونا للانشغال بقضية لا تمثّل همومنا الثقافية والمعرفية في الوقت الحاضر؟ وهي قضية أقرب الى أن تكون مجردة وغير ملموسة

حتى " صار البحث في الاعجاز، خطاباً في المفارق المحتجب الذي يمكن تصوره فقط في المخيلة، وصار الاعجاز تعجيزاً وايقافاً لنشاط المخيلة،...، فالإعجاز لم يعد، إثرئذ ، دافعاً للبحث عمّا يستوطن المادة، الكون، ويحرك الكائن، إنما حلّ حجراً على العقل"(٤٠) ومع الفصاحة وجدنا هذا المبحث اكثر انتماءً للدرس الصوتي منه الى البلاغي، وقدّم تصوّراً مهما عن البحث الصوتي عند العرب، لكنّه في الجانب الاخر أثقل الدرس البلاغي بما لم يخدم هذا الدرس.

فما الذي يريده البحث من هذه التحالفات؟ أ فنعيد تأسيس شكل العلاقات معها أم محاولة التخلّص منها والبحث عن تحالفات جديدة مقترحة قد تعطي للبلاغة مساحة أوسع ؟ يبدو انّنا بحاجة الى تحالفات تسمح للبلاغة ان تستدعي خطابات وظواهر شكّلت تأثيراً وأهمية في المجتمع، وهذا يستدعي تعديلاً في هيكلية البلاغة بدأ من المفاهيم التي تنظّم عملية النظام الاصطلاحي وصولاً الاجراء، والانتقال الى خطابات لم تلقَ من العناية في بلاغتنا وتحالفاتها السابقة.

بحثنا في خطوته الاولى معنيٌّ بتحرير المفهوم، وقد يلحقه – فيما بعد – تحرير في الادوات والاجراء ونوعية الخطابات، وهذا التحرير يبنى على أساس التخلّص من الذاكرة التي أثقلته، ثمّ البحث عن (البلاغة) المتشكلة من منظومة اصطلاحية بلاغية♦ ولاشك ان الذاكرة محمّلة بمصطلحات نقدية، وصوتية، ونحوية، وقرآنية تخدم المجال الذي انتجت فيه، فمحاولة التخلّص من هذا الارباك الاصطلاحي في نظام الذاكرة، سيجعلنا أمام فهم دقيق لتفاصيل المصطلح البلاغي وربطه بسياقات جديدة تفرضها طبيعة تلك التحالفات المقترحة، اي أننا سنفرض مصطلحاتنا البلاغية ونوسع من شكلها ومدلولها لتستوعب نظام التحالف الجديد، فضلاً عن أن التخلّص من قدسية المفهوم سيسمح لنا في قراءة البلاغة بوصفها صفة متشكّلة في الخطابات جميعها وغير مقتصرة على الخطابات المركزية والنخبوية، ومحاولة فرض حضور (علم البلاغة) داخل أنظمة المجتمع والعناية بما تنتجه تلك الانظمة وفهم غاياتها الاستهلاكية، فعلى سبيل المثال يتمّ استدعاء مصطلح (التلاعب)♦ ليدخل ضمن منظومة الاصطلاحات البلاغية المعنية بخطابات المجتمع او التي يعزز وجودها (علم البلاغة الاجتماعي) حيث يمنح دارس البلاغة القدرة على فهم الخطابات وتفكيك تلاعبها، بعيداً عن التمجيد بها. كذلك الانتقال بالمصطلح البلاغي من دائرة الجملة الى دائرة الخطاب وتوسيع دلالته، مثل مصطلح (الكناية) الذي بعثرت الكثير من دلالاته بحجة الهدف الجمالي، لكنّنا تجاهلنا القيمة الثقافية التي يحظى بها هذا المصطلح، مثلما تجاهلنا صلاحية حضوره في الممارسات غير الخطابية مثل الطقوس والشعارات والعادات الاجتماعية، حيث تمتلك تلك الممارسات دلالتين دلالة مكنّى بها وأخرى مكنّى عنها، لكنّ تعبيرنا الكنائي ينتقل من ان يكون تعبيراً بالجملة الى تعبير بالممارسة او الخطاب. وكذلك اقتراح أن يكون الفاعل الخطابي مساهماً في انجاز العملية البلاغية وهو شكل من اشكال توسيع دائرة الاهتمام بالمتكلم التي أخذت مساحة جيدة في البلاغة العربية، حيثُ تُقرأ مسؤولية الخطاب والظاهرة البلاغية بصورة أكثر تفاعلاً، لأنّ الفواعل مختلف المشاركين القائمين بعمل سواء كان ايجابياً أو سلبياً(٤١) .

ولا شك انّ هذه الاصطلاحات المقترحة التي يمكن الاستعانة بها من تحالفاتنا الجديدة تسهم في تأسيس بلاغة قادرة على قراءة خطابات لم تُقرأ بلاغياً في ظل ذاكرتنا وقدسيتها لنوعية الخطاب والعناية بالجملة مثل الخطاب السياسي، او الديني، أو التأريخي، او الاجتماعي، فالخطاب بكل أشكاله حامل لمحمولات قد تكون سياسية أو دينية أو تأريخية وغيرها، وهنا يفرض الخطاب نوعية الاصطلاحات التي يتمّ بها معالجته بلاغياً، فعلى سبيل المثال الدخول الى الخطاب التاريخي وتحليله من اصغر عنصر فيه وصولا إلى حكايته التاريخية يجعلك امام تفاصيل قد تكون غامضة على قارئ التاريخ بشكله المعهود. ولذا نفترض القراءة البلاغية أي المعتمدة على تحليل الخطاب، عبر ضمّ الحدث الخطابي الواحد إلى مجموعة احداث اخرى لتشكّل بدورها منظومة خطابية تعطينا تصوراً عن الفعل وردّ الفعل وظهور شخصيات فاعلة قد أغفلها أو يغفلها المؤرخون والتاريخيون، لأنها تسربت بين السطور، أو كانت ضمن حكاية مضمّنة تحتاج إلى المعاينة، وتكشف ما لم يجد حضوراً، فضلا عن "ان

الخطاب التاريخي يمثّل نوعا من الخطابات البلاغية التي تستهدف الاقناع أو التأثير أو كليهما، وان البعد البلاغي للخطاب التاريخي يتجاوز كونه تجميلا للغة إلى ان يكون مكونا بنائيا للخطاب التاريخي، من تصور يرى ان جوهر الخطاب يكمن في الطريقة التي يتشكّل بها"[٤٢] .

وبالتخلّص من القدسية يمكننا ان نقرأ خطابات المهمشين والجمهور وبلاغتهم ونحاول ان نتجاوز الادراك المهيمن أن " المعارف تستمد شرفها من شرف المادة التي تدرسها ، فلم يغامر علماء البلاغة العرب بتعرض علمهم للتدنيس بدراسة كلام الغوغاء والعامة ونصوصهم. ولم يعن الدرس البلاغي بخطابات الحياة اليومية ، ونصوصه، ناهيك عن الاهتمام بالاداب الشعبية"[٤٣] فالبلاغة اكتسبت صفة قدسية ورسمية ونخبوية، انعكست سلباً على البلاغة بوصفها علماً ، فاذا كانت هناك بلاغة متعالية او بلاغة نخبة تقابله بلاغة الجمهور، وكذلك بلاغة رسمية تقابلها بلاغة المقموعين[٤٤] فهل يعني ذلك علينا دحض هذه البلاغات وإهمالها او تأسيس علم بلاغة خاص بها ؟ يبدو أن عامل التأثير في المجتمع والثقافات هو الذي يحتّم علينا احترام تلك الخطابات المؤثرة وجعلها ضمن اهتمامات الدرس البلاغي، لأنّ البلاغة لا يمكن لها ان تكون صفة مؤثرة ما لم تكن محمية بفنونها وأدواتها المؤثرة، ولذا ينبغي إعادة النظر بمفهوم البلاغة أولا وان يفهم كما هو الان لا كما يريدونه المقدّسون.

الخاتمة

١- تمثل هذه الدراسة سبيلاً لإعادة قراءة البلاغة مفهوماً بين (الصفة والفن والعلم) ومحاولة كسر النسق الثاوي في ذهنية القارئ العربي بفعل تأثير قراءة الذاكرة لا الذاكرة نفسها، حيث أن هذه القراءة هي محمية بالذاكرة، فقدسيتها تفرض التشبث بقدسية الذاكرة.

٢- اهمال بعض الخطابات المؤثرة في المجتمع يعدّ عيباً في منظومة القراءة حتى وإن كانت تلك الخطابات غير مندرجة في قائمة النخبة، لكنّها مندرجة في قائمة التأثير شئنا ام أبينا.

٣- توسيع دائرة المصطلح البلاغي إمّا من حيث دلالته واستيعابه لنظام الخطاب لا نظام الجملة أو من حيث إضافة بعض المصطلحات القادرة على فحص الخطابات بلاغياً وكشف قدرتها وفهم وظيفتها.

٤- تأسيس تحالفات جديدة لا بمعنى هدم التحالفات السابقة، بل لان تلك التحالفات غير قادرة على فهم احتياجات المجتمع في الوقت الحاضر، ولذا إقام التحالفات المعرفية الجديدة مع علم الاجتماع او السياسة أو النفس أو الاعلام أو التحليل النقدي للخطاب هو تغذية البلاغة بما يمكّنها من فهم الخطابات المؤثرة والخطابات التي تحتاج الى اعادة قراءة عبر علم البلاغة.

٥- تقترح الدراسة تأسيس (علم البلاغة الاجتماعي) وهو معني بتحليل الظاهرة الاجتماعية وتأثيرها في المجتمع.

هوامش البحث

[١] - ينظر: ما البلاغة ؟، مجدي احمد توفيق: ٢٨

[٢] - ينظر: أصول البلاغة عند العرب، مجلة المشرق، السنة الحادية عشرة، ١٩٠٨، خليل أده اليسوعي: ٧٠٦

[٣] - ينظر: مقدمة لدراسة بلاغة العرب، احمد ضيف: ١

[٤] - ينظر: سلامة موسى: البلاغة العصرية واللغة العربية: ١٠٥

[٥] - ينظر: فن القول: أمين الخولي: ٦٤

[٦] - معجم مقاييس اللغة، ابن فارس: م٤/ ٦

[٧] - مقدمة في علم المصطلح، علي القاسمي: ١٣

[٨] - الشفاء، النفس، ابن سينا : ٣٧

[٩] - ينظر: كتاب النفس، ارسطو : ٢٠٨

[١٠] - ينظر : المصدر نفسه: المكان نفسه

[١١] - ينظر: الذاكرة والتاريخ والنسيان، بول ريكور: ٣١ وما بعدها

[١٢] - ينظر قول الباحث ر. ماكاريوس في كتاب المقدس والمجتمع، فريد الزاهي: ٣٢

[١٣] - مفتاح العلوم: ٤٣٧

[١٤] - الصناعتين، ابو هلال العسكري: ٦٤

[١٥] - البيان والتبيين، الجاحظ: ج١/ ٢١٣

[١٦] - مفتاح العلوم: ٤١٥

[١٧] - ينظر: الايضاح ، القزويني : ٢١

[١٨] - ينظر: ما البلاغة ؟، مجدي احمد توفيق: ٩

[١٩] - مفتاح العلوم: ١٦١

[٢٠] - المصدر نفسه:١٦٢

[٢١] - الايضاح: ٢٠

[٢٢] - ينظر: معجم مقاييس اللغة: م٣/ ٤٣٩- ٤٤٠

[٢٣] - اسرار البلاغة، الجرجاني: ١٠٩

[٢٤] - - ينظر على سبيل المثال ما ذكره شوقي ضيف في كتابه " البلاغة – تاريخ وتطور": ٩ وما بعدها، التفكير البلاغي عند العرب، حمدي صمود: ٢٣-٣٢

[٢٥] - ينظر على سبيل المثال البيان العربي دراسة تاريخية فنية في اصول البلاغة العربية، بدوي طبانة: ١٧، و (المدخل الى دراسة البلاغة) السيد احمد خليل: ٩٣ وما بعدها، ويشير حمادي صمود الى ان كتاب " مجاز القران أقدم مؤلف وصلنا بهذا العنوان، ولم يشر الى انه أول كتاب في التأليف البلاغي، ينظر : التفكير البلاغي عند العرب: ٤٠ كذلك محمد العمري الذي أكد على ان كتاب (مجاز القران) أقدم وأوسع دراسة ربطت بين النص القرآني والعربية من خلال النص الشعري، وهو بذلك لم يشر الى أسبقيته في التأليف البلاغي بقدر أسبقيته في الربط والاستدلال بالنص الشعري، ينظر كتاب العمري (البلاغة العربية أصولها وامتداداتها) ٩٢

[٢٦] - ينظر: البلاغة تأريخ وتطور: ٥٧-٥٨

[٢٧] - ينظر البيان العربي دراسة تاريخية فنية في اصول البلاغة العربية، بدوي طبانة: ٤٩ -٥٠، التفكير البلاغي عند العرب، حمادي صمود: ١٤

[٢٨] - ينظر التفكير البلاغي عند العرب: ٣٧٢

[٢٩] - ينظر على سبيل المثال الموجز في تأريخ البلاغة ، مازن المبارك: ٦٥

[٣٠] - ينظر: المباحث البلاغية في ضوء قضية اعجاز القران، احمد جمال العمري: ٣٢

[٣١] - ينظر : الصناعتين: ٩

[٣٢] - ينظر البيان العربي دراسة تاريخية فنية في اصول البلاغة العربية: ٤١

♦ سبيلنا لمعرفة انتماء هذه الاعمال والكتابات الى أي حقل معرفي، يكون عبر قراءة هذا المنجز خطاباً لا فكراً ومضموناً، لان قراءته بوصفه خطاباً ستكشف هذا الانتماء حيث نلامس بناء الجملة وأساليب التعبير والاقتراب من الحوامل التي تتكفل عملية نقل المحمول بدأ من العنوان وانتهاء بالخاتمة وارتباط هذه النصوص الموازية بالنص المركزي، فتحليل الخطاب يبدأ من الكيفية ليتعرّف على المضمون.

[٣٣] - أنظر ما كتبه أحمد ضيف في مقدمة لدراسة بلاغة العرب، وتأكيده على أن البلاغة هي الادب: ١٢ وما بعدها

[٣٤] - ينظر: ما البلاغة، مجدي احمد توفيق: ٦٣

[٣٥] - ينظر هذه العبارة في سر الفصاحة : ٤٩-٥٠

[٣٦] - ينظر: سر الفصاحة: ٤٩

[٣٧] - ينظر: المطول ، التفتازاني : ١٣٩

[٣٨] - مجاز القران، ابو عبيدة: ج١/ ٨

[٣٩] - ينظر: بنية العقل العربي، محمد عابد الجابري: ٢١

[٤٠]- قراءة معاصرة في اعجاز القران، ابراهيم محمود: ١١

♦ - قدّم استاذنا الدكتور أحمد مطلوب عملاً كبيراً في موسوعته (معجم المصطلحات البلاغية) لكنّه للأسف كان مساهماً بشكل فعّال في غياب الهوية البلاغية عبر ذكر العديد من المصطلحات التي لا تنتمي لمنظمة البلاغة، بل هي مصطلحات نقدية وعروضية، وهذا الامر نفسه كرّره في عمله الرائد (معجم مصطلحات النقد القديم)

♦ وهو من المفاهيم المهمة التي ناقشها فان دايك في كتابه (الخطاب والسلطة) ضمن اطار التحليل النقدي للخطاب ويعبر عن سوء توظيف السلطة الخطابية ، ينظر: الخطاب والسلطة : ٤٢٩

[٤١]- ينظر: معجم تحليل الخطاب، باتريك شاردو ودومينيك دومنغو، ترجمة عبد القادر المهيري وحمادي صمود، مراجعة صلاح الدين الشريف، دار كريستال سيناترا، تونس ٢٠٠٨ : ١٩

[٤٢]- التاريخ عبر الاستعارة مصر قبل الثورة في خطب السادات، عماد عبد اللطيف، موجز ضمن Jacqemond.r.(٢٠٠٦) Ecrir l,histoire de son temps (Europe et monde arabe) ٢٩٩

[٤٣]- ماذا تقدم بلاغة الجمهور للدراسات العربية، عماد عبد اللطيف، ضمن الكتاب الجماعي" بلاغة الجمهور مفاهيم وتطبيقات" تحرير وتقديم صلاح حسن حاوي وعبد الوهاب صديقي: ١٩

[٤٤]- غواية التراث، جابر عصفور: ٢٥٩ وما بعدها.

مصادر الدراسة ومراجعها

١. اسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، علّق حواشيه محمد رشيد رضا، أعتنت بهذه الطبعة منى احمد الشيخ، دار المعرفة لبنان- بيروت، ط١- ٢٠٠٢.
٢. أصول البلاغة عند العرب، خليل أده اليسوعي، مجلة المشرق مجلة كاثوليكية، س١١- ١٩٠٨.
٣. الايضاح في علوم البلاغة، القزويني، ابراهيم شمس الدين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية- بيروت لبنان، ط١- ٢٠٠٤.
٤. البلاغة "تطور وتاريخ"، شوقي ضيف، دار المعارف- مصر، ط٩- ١٩٩٥.
٥. البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، محمد العمري، أفريقيا الشرق، ١٩٩٩.
٦. البلاغة العصرية واللغة العربية، سلامة موسى، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٢.
٧. بنية العقل العربي" دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية"، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٦- ٢٠٠٠.
٨. البيان العربي دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية، بدوي طبانة، مكتبة الانجلو المصرية، ط٣- د-ت.
٩. البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي- مصر، ط٧، ١٩٩٨.
١٠. التاريخ عبر الاستعارة مصر قبل الثورة في خطب السادات، عماد عبد اللطيف، موجز ضمن Jacqemond.r.(٢٠٠٦) Ecrir l,histoire de son temps (Europe et monde arabe) ٢٩٩
١١. التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره الى القرن السادس "مشروع قراءة"، حمادي صمود، منشورات الجامعة التونسية، ١٩٨١.
١٢. الخطاب والسلطة، توين فان داك، ترحمة غيداء العلي، مراجعة وتقديم عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، ط١- ٢٠١٤.
١٣. الذاكرة ،التأريخ ،النسيان، بول ريكور، ترجمة وتقديم وتعليق جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١- ٢٠٠٩ .
١٤. سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدي، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح واولاده- ١٩٦٩.

١٥. الشفاء ، ابن سينا، تصدير ومراجعة ابراهيم مدكور، تحقيق احمد الاهواني، المطبعة الاميرية بالقاهرة – ١٩٥٨.

١٦. غواية التراث، جابر عصفور، الدار المصرية اللبنانية، ط١- ٢٠١١.

١٧. فن القول، أمين الخولي، قدّم لهذه الطبعة د. صلاح فضل، دار الكتب المصرية بالقاهرة- ١٩٩٦ .

١٨. قراءة معاصرة في اعجاز القران، ابراهيم محمود، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط١-٢٠٠٢.

١٩. كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، ابو هلال العسكري، تحقيق مفيد قمحة، دار الكتب العلمية – بيروت، ط٢.

٢٠. كتاب النفس، ارسطوطاليس، ترجمة احمد فؤاد الاهواني، مراجعة الاب جورج شحاتة قنواتي ، تصدير ودراسة مصطفى النشار، المركز القومي للترجمة، ط٢- ٢٠١٥.

٢١. ما البلاغة ؟، مجدي احمد توفيق، دار السندباد للنشر والتوزيع، ط١- ٢٠١٣.

٢٢. ماذا تقدم بلاغة الجمهور للدراسات العربية، عماد عبد اللطيف، ضمن الكتاب الجماعي بلاغة الجمهور " مفاهيم وتطبيقات" ، تحرير وتقديم صلاح حسن حاوي، وعبد الوهاب صديقي، دار شهريار ، ط١- ٢٠١٦.

٢٣. المباحث البلاغية في ضوء قضية الاعجاز القرآني، احمد جمال العمري، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٩٩٠.

٢٤. مجاز القران، ابو عبيدة معمر بن المثنى، عارضه بأصوله وعلّق عليه محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي – مصر، د- ت.

٢٥. المدخل الى دراسة البلاغة العربية، السيد احمد خليل، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت لبنان – القاهرة، ١٩٦٨.

٢٦. المطول شرح تلخيص المفتاح، التفتازاني، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية- بيروت لبنان، ط٣- ٢٠١٣.

٢٧. معجم تحليل الخطاب، باتريك شاردو ودومينيك دومنغو، ترجمة عبد القادر المهيري وحمادي صمود، مراجعة صلاح الدين الشريف، دار كريستال سيناترا، تونس ٢٠٠٨.

٢٨. معجم مقايس اللغة، احمد بن فارس بن زكريا، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية، ايران ــ قم ، د- ت.

٢٩. مفتاح العلوم ، السكاكي، حققه وقدّم له وفهرسه عبد الحميد هنداوي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية ، بيروت- لبنان، ط١- ٢٠٠٠.

٣٠. المقدس والمجتمع، نور الدين الزاهي، أفريقيا الشرق – ٢٠١١.

٣١. مقدمة في علم المصطلح، علي القاسمي، دار الحرية – الموسوعة الصغيرة، ١٩٨٥.

٣٢. مقدمة لدراسة البلاغة عند العرب، احمد ضيف، مطبعة السفور بالقاهرة، ط١- ١٩٢١.

٣٣. الموجز في تاريخ البلاغة، مازن المبارك، دار الفكر ، د ط، د ت.

٣٤.